

# سميرة عزام والأدب النسائي

## بقلم جواهر النقاش

أرى الصورة في ميدان الأدب الذي يعالج قضية المرأة العربية ويعبر عنها على النحو التالي :

هناك مدرسة قديمة في النظر الى قضية المرأة العربية وفي التعبير عنها ، وهذه المدرسة تنظر الى المرأة والى قضيتها كما كان الآباء والاجداد ينظرون الى هذه القضية في عصر الحريم وعصر المالك والجواري ، واعتقد أن هذه المدرسة التي لا مفر لنا من سميها باسم المدرسة الرجعية قد استطاعت أن تخلق كثيرا من المواهب الفنية النسائية وتقضي عليها وإذا جاز لي الآن أن أشير الى بعض المآسي التي أصبحت ملكا للتاريخ ، فليس هناك حرج على الانسان من أن يشير الى ما أصبح التاريخ يملكه ...

فاني اذكر لحضراتكم أن مصر قد عرفت منذ عشرين سنة تقريبا شاعرة شابة اسمها « ناهد طه عبد البر » . وكانت هذه الشاعرة تكتب تحت اسم مستعار يتكون من الحروف الاولى من اسمها الحقيقي أي : « ن.ط.ع. » . وقد رفضت هذه الفنانة الشابة أن تكتب اسمها الصريح الكامل تحت ضغط الخوف من الفهم الرجعي للأدب وللمرأة على السواء . فقد كانت هذه الفنانة تعاني من الاحساس بأنه ليس من حق المرأة أن تفصح عن مشاعرها بالتعبير الادبي ، لانه إذا كانت المرأة العربية قد كشفت حجابها المادي بعد معركة عاصفة ، فان كشف الحجاب الروحي مسألة أعصى من أي مسألة مادية أخرى . ولقد ماتت هذه الفنانة الشابة في مقتبل العمر تحت تأثير الصراع المدمر بين ارادتها الحرة والظروف الفكرية الفنية التي فرضتها على نفسها أو التي فرضتها عليها البيئة المحيطة بها . وقد كشف حقيقة مأساتها بعد وفاتها الناقد المصري الراحل أنور المعداوي ، فقد كانت هذه الفنانة المسكينة تكتب اليه بخطها وببعض أسرار روحها ، على أن انتاج هذه الاسماء مع رسائلها الخاصة التي تحدثت فيها عن مشكلتها لم ينتشر شيء منه حتى الآن ، باستثناء بعض القصائد المبعثرة في الصحف والمنتشرة تحت اسمها المستعار ، وأخيرا أن يرى انتاج هذه الفنانة النور كوثيقة اجتماعية ان لم يكن كوثيقة فنية .

ومأساة أخرى من هذا الطراز هي مأساة الكاتبة الروائية (فنايات الزيات) التي انتحرت بعد أن كتبت روايتها الاولى والوحيدة « الحب والصمت » وقد صدرت هذه الرواية منذ شهور في القاهرة . وفي تقديري أن بقايا الفهم الرجعي لقضية المرأة ولأدب المرأة على السواء هو المسئول عن مثل هذه المآسي ، وربما كانت هذه المآسي نفسها حالات متطرفة ونماذج شاذة ، ولكن الذي يواجهنا من آسار هذه المدرسة الرجعية في انتاج بعض كبار الادبيات العربيات ليس بالقليل . فما أكثر ما نجد في بعض النماذج المعروفة من هذا الأدب النسائي الكثير من التحفظ ، والخوف من أي بوح صادق ، والميل السى التجريد والتنمية والغموض ... وكل هذه الظواهر ليست سوى ثمرة للتأثر بالمدرسة الرجعية في الفكر والفن والحياة .

على أن هذه المدرسة الرجعية القديمة تنهار يوما بعد يوم، والزم يجرها معه ولا شك مع أي بقايا أخرى لم يعد العصر يهضمها في الفكر والحياة .

بقي في ميدان قضية المرأة والتعبير عنها مدرستان ... اعتقد أن الصراع بينهما هو الصراع العاسم والحقيقي ، وهو الصراع المدوي حقا في حياتنا الفكرية والاجتماعية المعاصرة ، وهو بعد ذلك كله الصراع

عندما قرأت نبأ وفاة سميرة عزام شعرت بحزن عميق يملأ روحي، وحينما انتهت لحظة المفاجأة والصدمة ، فكرت في هذا الحزن الغامر : من اين جاء ؟ ... هو من جانب حزن شخصي ، فلقد كنت اعرف سميرة عزام منذ عشر سنوات تقريبا ، وكنت اجد في شخصيتها نموذجا انسانيا ممتازا ، لقد تعودت ان تخفي عن الآخرين هومهما لتميش هي في هم الآخرين . وتعودت أن نعطي نفسها - باخلاص وتواضع وامانة - للقضايا العامة التي تتصل بالمجتمع العربي كله اكثر مما تعودت ان تسجن نفسها مع القضايا الذاتية الخاصة ، ومثل هذا النموذج الانساني الذي تمثله سميرة كان جديرا بان يحتل من قلوب الذين يعرفونه مكانة رفيعة . على ان حزني على سميرة لم يكن مصدره هذه المعرفة الشخصية وحسب ، بل كان مصدره من ناحية اخرى معرفة ادبية طويلة ، فقد تابعت ادب سميرة عزام منذ سنة ١٩٥٤ حتى آخر اناجها المنشور ، ومنذ اللحظة الاولى وانا احس ان سميرة عدم للأدب العربي المعاصر نموذجا اصيلا ، وكنت اتقا أن هذا النموذج لن يبعد انظر بسهولة ، وبعني الى جانب ذلك نت واقفا من اسالته العنية والعذرية ، ولقد كانت وفاة سميرة نتجيمه ادبيسه بهذا المعنى ... فالامل الذي لنا بنظرها منها لم يكن بعل خصوبة ولا عنى عن تلك التي حققتها بالعمل .

على ان الظروف التي ماتت فيها سميرة والتي تعلمونها جميعا قد جعلت من موتها حزنا لا يمكن ان ينساه الانسان ، كما تعود البشر ان ينسوا احزانهم بمرور الايام . لقد ماتت وهي في طريقها الى الاردن بعد فترة قصيرة من حرب الايام الستة الحزينة من يونيو ١٩٦٧ ... وهكذا ارتبطت وفاة سميرة بجرح كبير من جراح امننا العربية .. ولست اشك ان انفصال سميرة بالمأساة كان السبب الاول فسي وفاتها ... اقول ذلك وانا اعلم انها كانت مريضة وان الاطباء كانوا يشمرون بخطر الموت يزحف على حياتها ... ولكن المرض بكل تأكيد كان من الممكن ان يعيش معها - مسانسا - لسنوات وسنوات ... ولكنه الجرح الاكبر الذي اصاب العرب في الخامس من يونيو هو الذي قضى - بالانفعال العنيف والشعور الطافي - على حياة سميرة.

\*\*\*

لعل من واجبا هنا الآن - وفاء لسميرة نفسها - ان تتسرك قليلا لفة الحزن والعاطفة لتتساءل : ماذا كانت تمثله سميرة عزام في الأدب العربي المعاصر ولي على هذا السؤال اجابة قصيرة واجابسة اخرى مفصلة ، اما الاجابة القصيرة فانا اقولها بلا تردد ولا تأثر بأي ظروف خاصة قد يملها جو التكريم لذكرى انسانة عزيزة راحلة ... فالانسان كما يقول جوركي « لا يصبح احسن مما كان لمجرد انه مات » ... لقد كانت سميرة عزام افضل كتابات القصة القصيرة في ادبنا العربي المعاصر منذ ان اشتركت المرأة العربية في هذا الميدان الفني . ميدان القصة القصيرة الى اليوم ، ان سميرة هي اميرة كتابات القصة العربية القصيرة ... اقول هذا الحكم الفني مطمئنا اليه واقفا منه كل الثقة راضيا بأي مناقشة فنية أو فكرية حوله . على أنني أحب أن أؤكد أن هذا الرأي لا ينقص من قدر عدد آخر من الكاتبات الجادات اللاتي يحاولن ان يصنعن شيئا له قيمة وله مستقبل في هذا الميدان . هذه هي الكلمة العامة حول دور سميرة عزام في ادبنا المعاصر ، واذا سمحتم لي أن اوضح هذا الرأي بشيء من التفصيل ... فانسي

الذي يجب ألا نتركه للزمن ... بل ينبغي أن نحدد موقفنا منه ونساعد على حسمه .

فهناك مدرسة أدبية وفكرية تدعو الى حرية المرأة بمعنى خاص .. اسارع فاقول بكل صراحة انه معنى مستمد من حياة الصالونات، ومن حياة الاستقراطية العربية والغربية على السواء ، واسارع مرة أخرى فاقول ان هذا المعنى هو أكثر المعاني زيفا ورخصا وتضليلا فسي فهم قضية المرأة ، وهو ثمرة الفراغ عند الطبقات الطفيلية غير المنتجة في المجتمع العربي ، وثمره التقليد عند الذين يعتبرون مثلهم الأعلى هو حياة هذه الطبقات عندنا أو في الغرب ... فالمرأة عند هذه المدرسة هي المرأة التي تبحث عن المأخرة ، وتبر عن قلق وهمس هو قلق الضياع وعدم الارتباط بحركة المجتمع الحقيقية . وخلصه موقف هذه المدرسة في فهم المرأة والتعبير عنها - فكراً وفناً وصحافة - ان الحرية المنشودة للمرأة هي حرية التفريط وحرية النزوة وحرية الصب ، وأن من يسميه أصحاب القيم بالمرأة المنحلة يسميه أصحاب هذه المدرسة بالمرأة المتحررة .

ولقد استطاعت هذه المدرسة أن تجد في بعض العواصم العربية صحفا واسعة الانتشار تروج لها ، وتقدم الحماية والرعاية والدعاية والدعوة . وفي مصر بالذات حملت لواء هذه الدعوة مدرسة صحفية معينة ، تعينني هزيمة هذه المدرسة وانهارها أمام القيم الجديدة الاصلية التي أرسنها ثورة ٢٣ يوليو من تحديد أسماء أصحاب هذه المدرسة الصحفية ، وهي التي روجت لهذا الفهم الزائف لادب المرأة ولقضية المرأة على السواء . وقد حاولت هذه المدرسة الصحفية أن تنشئ مجلة نسائية ذات يوم تدعو لهذه القيم المنحرفة وتنادي بها ولكن هذه المجلة لم تستطع أن تعيش في مجتمعنا الجديد أكثر من أسابيع ثم أغلقت أبوابها بلا أسف عليها من أحد ومع ذلك كله فما زالت هذه المدرسة وخاصة في الميدان الأدبي والفني في بعض البيئات العربية قوية مدعومة ذات نفوذ واسع .

أما المدرسة الأدبية الثانية والتي تقف على رأسها سميرة عزام ، صاحبة الذكرى النبيلة التي نحتفل بها اليوم ، فهي مدرسة تقوم على عدة دعائم :

أولا : ترفض هذه المدرسة أن تجعل للمرأة قضية مستقلة عن قضية الرجل في مجتمعنا العربي ، وترى أن حرية المرأة مرهونة بحرية المجتمع كله ، وأن تقدم المرأة مرهون بتقدم المجتمع كله . وكل كلمة كتبتها سميرة عزام في مجموعاتها القصصية الأربع تؤكد هذا المعنى ... كما ان سميرة عزام لم تصل الى هذه الفكرة بعد تطور أدبي وفني ، بل بدأت بهذه الفكرة منذ مجموعتها الاولى ، « أشياء صغيرة » حتى آخر كلمة كتبتها ، وحقت سميرة عزام كل تطورها في نطاق هذه الفكرة بالذات . وهذا الموقف العظيم والصحيح معا في ربط قضية المرأة بقضية المجتمع كله هو المدخل الصحيح لفهم قضية المرأة العربية، وهو الموقف الذي اتخذته قبل سميرة ومعها كل المفكرين والفنانين الكبار في ثقافتنا العربية المعاصرة ، وأذكر ان الرائد العظيم في الدعوة الى تحرير المرأة « قاسم أمين » كان يقول في مطلع هذا القرن : ان المرأة لا تفقد حريتها الا مع رجل يشكو من فقدان الحرية في مجتمع غير حر . ولذلك كان قاسم أمين في ذلك الوقت المبكر من هذا القرن يرى أن مسألة المرأة في المجتمع العربي هو أنه مجتمع خاضع للاستعمار . ويا له من تفسير جريء وسليم في ذلك الوقت البعيد .

وإذا أردنا أن نشير الى نماذج أخرى في هذه المدرسة الأدبية والفكرية التي تنتمي اليها سميرة عزام فاني أشير هنا الى نجيب محفوظ ذلك الفنان الكبير الذي كتب كثيرا عن المرأة العربية في مصر . وفسر مسألتها بأنها مسألة المجتمع نفسه ، ولعلنا كلنا نذكر

شخصية حميدة في روايته المعروفة « زقاق المدق » تلك الفئاة الشعبية البسيطة التي خرجت من حي « الحسين » الى المجتمع الواسع العريض ، ثم سقطت وانهارت وكان السبب في سقوطها وانهارها هو الانحلال الذي أشاعه الاستعمار الإنجليزي في مصر خلال الحرب العالمية الثانية . ولقد كان نجيب محفوظ في تلك الرواية يؤكد أن مسألة المرأة هي مسألة المجتمع ، بل لقد جعل « حميدة » رمزا لمصر كلها كما يرى معظم النقاد ، أي أن مسألة المرأة هي مقابل موضوعي دقيق لمسألة المجتمع كله .

ثانيا : استطاعت سميرة عزام أن تصل الى هذه الرؤية الصحيحة الاصلية لقضية المرأة العربية لسبب جوهري - في اعتقادي - هو انها اختارت نماذجها من الطبقات الشعبية ، حيث تبدو الحقيقة الاجتماعية والوطنية والانسانية واضحة بل ساحقة في وضوحها ، ولقد استطاعت سميرة أن تقرأ نماذجها الانسانية فتحسن قراءتها ، واستخرجت كل القيم العامة والافكار الرئيسية ، وفي الحقيقة لم يكن أمام سميرة عزام - بطبيعتها الفنية والنفسية - الا أن تتجه الى هذه النماذج بالذات . لان المدرسة الاخرى التي تزييف قضية المرأة بحجة الحديث عن المثقفات والحائرات والفاضيات والشائرات ... هذه المدرسة انما تعتمد على الاختيار السطحي السريع لنماذج من الطبقات الاستقراطية أو شبه الاستقراطية أو المفلدات للاستقراطية ... وفي مثل هذه البيئة تضيق كل الحقيقة الفنية والفكرية وتنطمس الرؤية الانسانية تماما . لقد ابتعدت سميرة عزام بنوعها الفني والانساني عن هذه النماذج لانها لم تجد فيها - كما هي في الحقيقة - الا قشرة زائفة لا تعطي شيئا عن حقيقة الناس الذين يعيشون في المجتمع العربي .

ثالثا : كانت سميرة تحمل في قلبها دائما مسألة فلسطين سواء عبرت عن ذلك مباشرة أو عبرت عنه بطريق غير مباشر .

رابعا : اعتقد أننا لا نستطيع أي حكم نقدي ان قلنا ان أدب سميرة عزام هو ادب ثوري ، بمعنى أنه يخدم ويكشف الحقيقة الاجتماعية التي يمكن أن ينطلق منها التطور الصحيح . فلا يمكن أن ينطلق التطور الاجتماعي من قلق فتاة استقراطية تبحث عن عشيق تلهو به ويلهو بها ، ولكنه يمكن أن ينطلق من قلق فتاة بسيطة تبحث عن علم أو عمل أو حبيب حقيقي يشاركها تجربة الحياة . ومن خلال مثل هذه النماذج استطاعت سميرة ان تصور هموم المجتمع الصحيحة ، واستطاعت ان تصل الى الثورية في الادب ، من نفس الطريق الذي وصل منه فنان مثل نجيب محفوظ ... طريق الفهم ، والعمق ، والارتباط بالنماذج الغالبة على مجتمعنا العربي .

خامسا : هناك بعد ذلك قضية العاطفة الانثوية في أدب سميرة . لقد تحدث بعض سخفاء الادب وأصحاب النظرة المشوهة الى المرأة بل والانسان معا فقالوا : ان أدبها يخلو من العاطفة بل ومن الانوثة . وإذا كان مفهوم العاطفة أو مفهوم الانوثة هو العرض المحموم المريض لبعض التوترات المراهقة ، أو التركيز على الاستمتاع بتقديم الصور الجنسية أو المشاعر الجنسية بدون أي مناسبة أو مبرر أو فكرة ... إذا كان الامر كذلك فإن أدب سميرة وأدب أي كاتبة اصيلة ممتازة يخلو من العاطفة ومن الانوثة بهذا المعنى المنحرف ، أما إذا أردنا التعبير الانساني الصادق عن العاطفة وعن الانوثة فاننا سوف نجد في أدب سميرة نموذجا رائعا حقا . لماذا ؟ لانها لا تضع العاطفة ولا الانوثة أبدا في اطار خاص وتعزلها عن الحياة ثم تركز رؤاها وصورها الفنية عليهما . وهي لا تعزل أبدا بين مشكلة مثل مشكلة الجنس وبين مشاكل الحياة الاخرى ، ان الجنس هو جزء من الحياة وليست الحياة جزءا منه . ثم ان الانسان - امرأة كان أو رجلا - لا يجعل حياته من أجل الجنس وانما الجنس هو في النهاية من أجل الحياة . ولذلك جاء

صدر حديثاً

## بابا همنفواي



بقلم أ. هوتشنر

ترجمة ماهر البطوطي

هوتشنر صحفي شاب أقبل على همنفواي يطلب منه حديثاً ادبياً وهو يقول له: «أذا لم تعطني الحديث ، طردوني من الصحيفة» فاستجاب الروائي الأميركي الكبير للصحفي الذي أصبح صديقاً يلازمه كظله طوال أربعة عشر عاماً ، حتى موته .

و «بابا همنفواي» هو الكتاب الذي أصدره هوتشنر أخيراً عن حياة همنفواي وكتبه بأسلوب روائي شبيه بأسلوب همنفواي نفسه ، وكشف فيه النقاب عن أن الكاتب الأميركي انتحر انتحاراً ، ولم يقتل خطأ وهو يقلب مسدسه ، كما زعمت زوجته التي أقامت الدعوى الآن على هوتشنر بسبب الأسرار الكثيرة التي كشف عنها في كتابه والمتعلقة بحياته همنفواي الخاصة ، ومنها اتهامه باغواء فتاة قاصرة في إسبانيا ومحاولته التهرب من دفع الضرائب الخ ..

كتاب ممتع لا يزال يثير ضجة كبيرة في اوساط العالم الادبية .  
منشورات دار الآداب

أدب سميرة الذي تصور فيه المرأة تعبيراً عن حياة المرأة العربية بكل مشاكلها ومن بينها المشككة العاطفية ، كل ذلك دون أن تغطي لبعض المشاكل حجماً شاذاً وغير طبيعي . فالذين يفعلون ذلك وخاصة فسي موضوع العاطفة وموضوع الجنس إنما يقصدون إلى الأثارة والتجارة لا إلى الفن الصحيح الصادق .

هذه هي الدعائم التي تعطي لسميرة عزام قيمتها الفكرية والفنية في حياتنا الثقافية المعاصرة ، وكل هذه الدعائم قد أصبحت ذات مغزى كبير لأن سميرة عزام قبل كل شيء هي صاحبة موهبة فنية عالية . وقد استخدمت سميرة موهبتها كما يفعل الفنان الذي يشمر بتجربة أهله وأمه ويضع فنه في خدمة هذه التجربة .

\*\*\*

لست أزعم أن هذه الصورة التي أقدمها لكم كاملة أو شبه كاملة فهي ولا شك صورة ناقصة وبحاجة إلى مزيد من الضوء . وعلى كل حال فإني أعتقد أن سميرة عزام قد أصبحت ملكاً للتاريخ وسوف يقول النقد العربي عنها الكثير . ولكنني أحب قبل أن أتلك هذا المنبر أن أثير في سرعة قضية أحس أن من واجبي أن أثيرها بينكم اليوم . لقد عاشت سميرة عزام حياتها الأدبية دون أن تحقق لنفسها شعبية واسعة كانت تستحقها قبل غيرها . وكان إنتاجها - كما وكيفا - يؤهلها للحصول على هذه التسمية الواسعة . وإذا قارنا ما حصلت عليه سميره في هذا الميدان بما حصلت عليه صاحبات المدرسة الأخرى التي تحدثت عنها في البداية لوجدنا تناقضاً مؤسفاً . وأعرف اسم واحدة من هؤلاء الكاتبات لا تكاد كتبها تظهر في السوق حتى تنتهي في ساعات . ويعلم الله ، وتعلم كل مفاتيح الفن أنها ليست فتاة على الإطلاق . بينما المجموعة القصصية الأولى التي أصدرتها سميرة عزام سنة ١٩٥٤ ما تزال موجودة في السوق حتى اليوم وقد أعطاها لي صاحب إحدى المكتبات مجاناً . ولست أريد أن أجعل هذه المناسبة فرصة للنواح والوعويل على حظ سميرة ومدرستها الفنية . ولا أريد أن أحسد صاحبات المدرسة الأخرى على شهرتهن وانتشارهن الكبير ، ولكنني أريد أن أقول شيئاً أحس به وينقل ضميري : أننا أيها الأخوة لا ننظر في إيماننا بما هو عدل وحق في ميدان الفكر والفن ، بينما يتطرف الآخرون ويبدلون من أجل ما يريدون كل ما يملكون . ومن هنا فإني أطلب أيها الأخوة - ونحن أسرة سميرة عزام الفكرية والمسئولون عن مصيرها الأدبي في حياتها وبعد موتها - أن يكون احتفالنا اليوم بسميرة عزام مناسبة لدعوة إلى التطرف الحقيقي في الدفاع عما نؤمن به . ولا يعيننا في دفاعنا عن قضايانا أن يكون لنا أصدقاء وأعداء ، فالذي لا أعداء له لا يستحق أن يكون مفكراً أو فناناً ، ولا يستحق حتى أن يكون انساناً . أن قضايانا العادلة أيها الأخوة في ميدان الفكر والفن تمشي على أطراف أصابعها كأنها خانقة أو كأنها خاطئة . وهذا وضع شاذ يجب أن تتخلص منه حياتنا الثقافية ، فلا يجوز أبداً أن نعيش في ظل هذا التقليد المؤلم : وهو أن نهمل قضايانا الحقيقية حتى نصاب بالفجيعة كما أصبنا بفجيعة سميرة . فنستيقظ ونحاول أن نصرخ ونندم .

أن بإمكاننا بل ومن واجبنا أن نسبق الفجائع التي تحل بنا ، وأن نضع القضايا التي نؤمن بها في موضعها الصحيح ... قبل أن نجرحنا الأيام ، وقبل أن نستيقظ على حزن يملأ القلب ... وقبل أن نصيح بعد فوات الأوان .

وأخيراً ... فلتعش ذكرى سميرة عزام وردة لا تعرف الذبول لتلقي حولها في كل ربيع عربي ... واعد بالثمار ... واعد بالحياة ... واعد بالعودة إلى الأرض المسروقة ... واعد بانتصار كل ما دعت إليه سميرة عزام من قيم شجاعة وجميلة .

رجاء النقاش